عرض لكتاب

LE GOFF, Jacque.- Mémoire et Histoire.- Paris, Gallimard, 1988. Coll. Folio / Histoire.

يعتبر كتاب "**التاريخ والذاكرة**" لمؤلفه جاك لوقوف[1] من الدراسات القليلة التي تبحث في العلاقة بين التاريج و الذاكرة. لاشك أن البحث في هذه العلاقة ليس سهلا لما يحتويه مفهوما الذاكرة و التاريخ من ملابسات. فالرأي العام يتجه، خاصة في الدول التي تعيش تحت وطأة – الايديولوجيات القومية– إلى الخلط بينهما. فالتاريخ يقترن بالذاكرة الوطنية، أما الذاكرة الوطنية فهي كل شيء، لا تقرّ بوجود الاختلاف والتمايز في المجتمع و الثقافة. و تعتبر حاليا بعض الاتجاهات الأنتربولوجية التاريخ *"مجرد صورة مصطنعة للذاكرة"* إذ تنظر إلى الذاكرة على أنّها أكثر *"واقعية"* و تنظر إلى التاريخ على أنه ذاكرة *"مشوهة"* .

يميز المؤلف بين التاريخ الذي هو احوال البشر في الزمن والتاريخ الذي هو علم هذه الأحوال يتناولها بالشرح والتفسير. أما الذاكرة، فهي على تنوع أشكالها و مضامينها، المادة الخام لعلم التاريخ. تقوم الذاكرة على جدلية الادراك و النسيان و هي بالتالي معرضة دائما للتوظيف والتسويغ. و إذا تعرض التاريخ إلى التوظيف من قبل السلطة السياسية، يقترب من الذاكرة بل يغذيها و يندمج معها، فيدخل كلاهما في جدلية الادراك والنسيان التي تعيشها بعض المجتمعات.

I- الذاكرة

[1] جاك لوقوف.– مؤرخ بارز ينتمي إلى مدرسة "الحوليات" الشهيرة.– مختص في التاريخ الوسيط و له عدة مؤلفات أبرزها : المثقفون في العصر الوسيط.– باريس، 1957 ؛ نحو عصر وسيط آخر.– باريس، 1977 ؛ مخيال العصر الوسيط.– باريس، 1988.

لمعالجة هذا المبحث (الأول من ثلاثة مباحث : **الذاكرة، التاريخ، الماضي– الحاضر**) يتناول "جاك لوقوف" سبعة موضوعات تتمثل في اصطلاح الذاكرة. الذاكرة الاثنية– نشأة الذاكرة المكتوبة– الذاكرة في العصر الوسيط، الذاكرة في العصر الحديث ثم التحولات التي تشهدها الذاكرة في الحقبة المعاصرة.

لمصطلح الذاكرة معان متعددة لكن المؤلف يهتم بتلك التي تتخذها الذاكرة في ارتباطها بمجالي التاريخ و الانتربولوجيا. إنها – في هذه الحالة– تعني قدرة الفرد أوالجماعة على تخزين أفعال أو معلومات ماضية بهدف استحضارها لسبب من الأسباب. من هذا المنظور، تحيل الذاكرة إلى علم النفس والبيولوجيا. يقابل الذاكرة في علم النفس النسيان (amnésie) فمتى تعرض الفرد إلى هذا النسيان، آضطربت شخصيته، أما الجماعة فاذا تعرضت له فقدت هويّتها. ويؤكد علماء النفس العلاقة الوثيقة بين اللغة والذاكرة ("جانبي" و"آثلان") لأن الكلام يعتبر الاداة الفعالة لاستحضار الأفعال و الممارسات الماضية.

– ثم يتبع جاك لوقوف المنهج التاريخي في دراسته للذاكرة–أي يدرسها من خلال نشأتها وتطورها عبر العصور التاريخية لينتهي إلى تحديد خصائصها في الحقبة المعاصرة. ففي المجتمعات التقليدية التي درسها علماء الأجناس و التي تكون ثقافاتها شفوية، تتخذ الذاكرة الجماعية فيها شكل ذاكرة إثنية: ترتكز على أمثولات الأصل (mythes d'origine). إن ماضى هذه المجتمعات حافل بأساطير الأبطال المؤسسين. أما ذاكرتها فتقترن بالأنساب. أنساب الأسر الكبيرة و القبائل التي يتناولها الناس جيلا عن جيل بهدف تأكيد التماسك الاجتماعي و ترسيخه. أما المجتمعات التقليدية التي عرفت الكتابة، فإن الذاكرة الجماعية فيها تشهد تمايزا واضحا يعتمد على عنصرين.

– ظاهرة الاحتفال بالاحداث الهامة التي تميز تاريخها و تتخذ هذه الظاهرة صورا مختلفة أهمها بناء النصب التذكارية كالأهرامات والأبراج و أقواس النصر.

– التوثيق عن طريق النقش على الطين أو الحجر و الكتابة على الجلود و البردي و الألواح. فتنشأ الحوليات و الأخبار التي تدون فيها أسماء الملوك و تحفظ فيها آثار السلالات المالكة (بلاد الرافدين – مصر – الصين...).

لم يكن هذا التطور الذي شهدته الذاكرة الجماعية ممكنا لولا النمو الحضاري الذي عرفته البشرية منذ ظهور المدن و قيام الممالك القديمة. أن ظاهرة التدوين أحدثت تحولا هاما في بنية الذاكرة إذ نقلتها من مجال "الحياة العامة" للقبائل و مستوطناتها إلى مجال "المدينة وحياة الملوك والأمراء. ويدل على ذلك نشأة السجلات التي تدون فيها العقود (مالية – تجارية – أو المعاهدات والأنساب والتقويم. و في اليونان القديمة عارض الفلاسفة بين الذاكرة (**منموس**) والتاريخ : إذ يربط كل من أفلاطون وأرسطو الذاكرة بالنفس و جانبها الروحي. إنها غير خاضعة للزمن.

وفي العصور الوسطى الأروبية، تعرضت الذاكرة إلى تحولات هامة بسبب انتشار المسيحية و احتكار الكنيسة لعالم الفكر والثقافة. وتوزعت الذاكرة الجماعية الأروبية إلى ذاكرة كنائسية طغت على جوانب هامة من الحياة و ذاكرة "علمانية" مهمشة. فالذاكرة الكنائسية تقوم على نشر تعاليم المسيح والحواريين وعلى الممارسات الدينية التي تدعو إلى الاقتداء بالقدسيين والشهداء والسير على منوالهم. أما الذاكرة العلمانية، فارتبطت بآليات تشكيل طبقة النبلاء عبر جمع أنسابهم وتدوين المواثيق التي تحفظ حقوقهم المعنوية و امتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية (**ذاكرة اقطاعية**).

جمعت الذاكرة الأروبية خلال العصور الوسطى بين الكتابي والشفوى ويتضح ذلك في الدور الهام الذي يلعبه منهج الحفظ والسرد في التعليم الجامعي على الخصوص.

و في عصر النهضة، أدى اكتشاف المطبعة إلى *"تحول جذري في الذاكرة الجماعية الغربية"* إذ وسعت مجالات المعرفة (علوم، فلسفة، فنون، آداب وحقوق). و دفعت الناس إلى الإهتمام بالمعارف الحديثة والتقنيات الجديدة. فأصبح الكتاب أداة رئيسية للذاكرة العلمية والادبية و الفنية. وفي الجامعات، انتقلت برامج التعليم من المواد التي تستند إلى الحفظ والاستظهار إلى المواد التي تعتمد على التفسير و التحليل. فتحررت الذاكرة الغربية شيئا فشيئا من سيطرة الكنيسة و تأكد ذلك خلال القرون التالية.

خلال القرن التاسع عشر، ظهرت الذاكرة الوطنية بفعل نمو المذاهب القومية في أروبا و نشأة الدولة – الوطنية التي أسست المتاحف و أقامت المكتبات و دور الارشيف (مواقع الذاكرة الوطنية على حد تعبير "بيارنورا". وشجعت الدولة ظاهرة الاحتفالات الوطنية و آعتنت بأحياء أمجاد الأمة لحمل الناس على الاعتزاز بماضيهم و الافتخار بأسلافهم. تدعم هذا الاتجاة في الذاكرة الجماعية الغربية خلال القرن التاسع عشر و الجزء الاول من القرن العشرين.

على إثر الحرب العالمية الثانية، أدت الاكتشافات الالكترونية (الحاسوب و غيره) إلى توسيع الذاكرة وتطويرها. فنشأت "بنوك المعلومات" التي غيرت الذاكرة الوثائقية و بفضل الثورة المعلوماتية، اتجهت العلوم الاجتماعية – خاصة الانتروبولوجيا والتاريخ – إلى تحديد الدراسات حول "الذاكرة الجماعية".

تمثل الذاكرة الجماعية رهانا كبيرا في المجتمعات المعاصرة. إنها الرأسمال الرمزي الذي تحتاج اليه الجماعات في حياتها اليومية: دونه لا يمكن أن نتصور الحياة، وتسعى الدولة و القوى الاجتماعية إلى توظيف الذاكرة الجماعية إذ تعتبرها وسيلة لفرض نفوذها على المجتمع و أداة لإضفاء طابع المشروعية على سلطتها.

II- التاريخ

– ينتقل جاك لوقوف إلى المبحث الثاني و يعالجه عبر محاور أربعة هي ثنائية التاريخ –الذهنية التاريخية – فلسفة التاريخ– علم التاريخ.

– خلافا للعلوم الاجتماعية، يحيل مصطلح التاريخ إلى ثنائية ملازمة لموضوعه. إنه يعنى في نفس الوقت – الماضي و الحاضر، الحدث و البنية – أحوال البشر ودراستها... يؤكد "بول ريكور" هذه الثنائية إذ يقول *"فالتاريخ تاريخ لأنه لا يرقي إلى التنظير المجرد و لا ينزل إلى السرد الحدثي."* ماهي المفارقات والملابسات التي تلازم التاريخ؟

– هل التاريخ علم الماضي؟ ينفر المؤرخون المعاصرون من هذا التعريف. إن تحويل الماضي إلى موضوع علم هو في الاساس فكرة تافهة لأن الأحوال الماضية لا يمكن بأية حالة من الاحوال إحياءها من جديد. ومع ذلك، فالماضي حاضر

بآثاره و في ذهن المؤرخ. كثيرا ما نقرأ. لا بد من مقارنة الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي. في هذه الحالة، تكون معرفة الماضي نسبية إذ تستجيب لمتطلبات الوضع القائم هذا ما يؤكده المؤرخ الايطالي "ب كروتسي" حين يقول **"إن التاريخ كلّه تاريخ حاضر"** . أكثر من ذلك فالتاريخ **"عالم ذهني يستنبط في كل لحظة من الاثار القائمة وهو ليس تمام الماضي بل الماضي المحفوظ"**.

– إن الماضي التاريخي ليس هو الماضي بل الماضي – الحاضر وأن عمل المؤرخ ليس إحياء الماضي أو بعثه من جديد بل إعادة بنائه باستمرار على قواعد صحيحة ومناهج علمية.

– إن التاريخ بشري بالتعريف لا تاريخ للكون و الطبيعة، ما نسميه كذلك هو في الحقيقة تصورات البشر حول الكون. فالتاريخ "*هو العلم الذي يدرس فعاليات الانسان في بعدها الزمني*" و حتى اذا توسع البحث التاريخي المعاصر إلى مجالات ترتبط بعالم الطبيعة (تاريخ البحر المتوسط "لبرودال") فذاك لا يعني طَبْعَنَةَ التاريخ. و إذ قلنا إن التاريخ بشري بالتعريف فهذا لا يعني أن مادته هي بالضرورة *"أعمال الأبطال"* . فالمدارس الحديثة في التاريخ لا تدرس الإنسان كفرد، إنما تدرس *"الإنسان كعضو في جماعة مهما كانت طبيعتها"* .

– التاريخ و الموضوعية؟ ان التاريخ معرفة نسبية مثل المعارف التي تنتجها بقية العلوم الانسانية. و مع ذلك فالتاريخ مطالب باستخراج الثوابث ورصد القوانين عن طريق الملاحظة غير المباشرة والمقارنة إنه يُقيم الفرضيات ويقوم على الاستنباط. و لا يجوز أن نخلط بين الموضوعية والحياد فالمؤرخ في أبحاثه لا يمكنه أن يصل إلى الموضوعية المطلقة لكنه يدرس و يحلل و يستنتج بناء على وثائق ومصادر يستعملها. فالموضوعية التاريخية تعتمد على مقايس علمية هي مصداقية المصادر، جدية المناهج، وتناسب المعطيات مع النتائج. وعندما نتحدث عن الموضوعية التاريخية يطرح البعض مسألة العلاقة بين السلطة والتاريخ. يوجد في المجتمعات الحديثة نوعان من التاريخ: **التاريخ الأكاديمي** يخضع لقواعد علمية يحددها المحترفون والذاكرة التاريخية **أو التاريخ الموجه للجمهور**. في الذاكرة التاريخية، كثيرا ما تمتزج الوقائع بالاساطير والحقيقة بالخيال والزمن بالغيب. يسعى

المؤرخون المحترفون دائما إلى التمييز بين هذين النوعين. فالتاريخ العلمي مكانه الجامعة ومؤسسات البحث، يصبو دائما إلى تصحيح الذاكرة الشعبية لتجنيبها أخطاءا قد تتحول إلى اخطار على الهوية والمصير. غير أن الدولة، عن طريق المدرسة ووسائل الاعلام تسعى هي كذلك إلى توجيه الذاكرة بما يخدم مصالحها ويكرس مشروعية سلطتها و مؤسساتها في المجتمع. فالتاريخ العلمي – مثل بقية العلوم– يتخذ من الحقيقة وحدها معيارا له. يقول بول فينه **"يجب أن نفهم أن المعرفة التاريخية ترتكز على معيار الحقيقة وحدها"** فالمؤرخ الذي يجعل خدمة السلطة ديدانه هو في الواقع خادم لها تخلى عن خدمة الحقيقة.

العام و الخاص في التاريخ :

من مفارقات علم التاريخ أن موضوعه: أحداث مشخصة، أوظواهر فردية لكن غرضه الاحاطة بالعام، و السعي وراء الكوني والمجرد. منذ عصر أرسطو والدارسون يقولون أن الفرق بين التاريخ و العلوم الطبيعية قائم على معارضة العام والخاص، في أواسط القرن التاسع عشر، انطلقت المدرسة الكانطية من الفكرة نفسها لتصل إلى موقف اكثر دقة. يقول ريكرت: *"ان منطق المؤرخ لا يختلف عن عالم الطبيعة بأن الأول يدرس شئون البشر والثاني أمور الطبيعة أو بأن هذا يدرك الثابت و ذاك المتحول أو بأنه يدرس الكلي و زميله الجزئي"* فعلم التاريخ هو في جوهره علم الخاص بصفته تعيينا للعام.

ماهي الثقافة التاريخية للمجتمعات المعاصرة ؟

توصل علم الاسطوغرافيا إلى رصد الذهنيات التاريخية في المجتمعات المعاصرة عن طريق تحديد موقع التاريخ في وسائل الاعلام والمدارس وغيرها. فالذهنيات التاريخية تتقرر في العلاقة القائمة بين التاريخ والذاكرة، بين الماضي و الحاضر، بين الأسطورة و التاريخ. آرتبطت نشأة التاريخ في اليونان بإنتقال الفكر من الميث (الأمثولة) إلى الواقع و من الكسموغرافيا (علم نشأة الكون) إلى السياسة: مجال حرية الانسان ومسؤوليته- غير أن اليونانيين كانوا يعتقدون في الزمن الدوري (cyclique temps). و جاءت المسيحية فغيرت شيئا ما من هذا المفهوم إذ كرست فكرة "التطور" في التاريخ بحيث تنتقل البشرية من زمن "الخلق" أي نشأة الكون إلى زمن **"البعث" (نشأة المسيحية)** و نهاية التاريخ **(يوم القيامة)** غير أن الذهنية التاريخية الأروبية – في العصور الوسطى- بقيت مقيدة بالفكر الديني الذي أضفى طابعا مقدسا للتاريخ. ومنذ عصر النهضة، أخذ الفكر التاريخي الأروبي يتحرر من المسيحية. فالتاريخ في منظور فلاسفة الانوار مجال تتصارع فيه القوى الاجتماعية المتناقضة وحقل يؤكد انتصار العقل على الخرافة. و في القرن التاسع عشر، أعطت "التاريخانية" دفعا جديدا للثقافة التاريخية الغربية إذ خلّصت التاريخ من بعده الاخلاقي. يقول "رانك" *"يطلب من المؤرخ أن يحكم على الماضي، و أن يعرف بالحاضر ليستفيد الناس من المستقبل. إن المؤرخ لا يمكن أن يقوم بهذه المهام السامية إذ يسعى فقط إلى تفسير الاحوال الماضية "*. كان الفكر التاريخاني الارضية التي كرست التاريخ إلى أن يكون علما بعيدا عن الاخلاق والسياسة، يدرس في الجامعات والمدارس بطرق ومناهج خاصة به. و في القرن الحالي، عرفت الدراسات التاريخية في أروبا نموا هاما، فاتسعت مجالات البحث التاريخ (تاريخ اقتصادي – اجتماعي – ثقافي-) و تطورت مناهجه (المنهج الكمي – المنهج البنيوي- المنهج الوظيفي...) و تجددت رؤية المؤرخ إلى التاريخ (تاريخ كلي، المبحثية،...) فإتسعت الثقافات التاريخية و آزداد الاهتمام بالتاريخ في المجتمعات الأروبية وأصبح المؤرخ مطالبا برفع تحديات جديدة – الاستجابة إلى

مطالب الشعوب و الدول المرتبطة بالبحث عن الهوية والذاكرة واستشراف المستقبل.

العمل على تقديم أنساق تفسيرية جديدة و مناهج حديثة في دراسة الماضي و تفسيره بطريقة علمية واضحة.

III- الماضي والحاضر :

ينهى جاك لوقوف دراسته بمعالجة مبحث "الماضي و الحاضر" عبر موضوعات أبرزها الماضي والحاضر في اللسانيات، الماضي والحاضر في الفكر البدائي، الماضي والحاضر في الوعي التاريخي القديم ثم الماضي والحاضر في الوعي التاريخي المعاصر. يأتي هذا المبحث تعميقا للمبحثين السابقين اذ يتناول فيه المؤلف مفهوم الزمن بين الذاكرة الجماعية الأروبية (خاصة) و التاريخ.

في اللغة، يلعب التميز بين الماضي و الحاضر دورا هاما خاصة في الأفعال، غير أنه لا يشمل كل اللغات. فاللغات السلافية تميز بين أفعال تدل على أعمال حاصلة كليا وأعمال في طور الحصول. و في أدب القصص نجد فكرة الماضي و الحاضر لا كمعطى أولي بل كأسلوب منطقي في تنظيم الرواية، في هذه الحال، يتداخل الماضي بالحاضر. وكثيرا ما تتغير الرؤية إلى الزمن في المجتمعات التقليدية. فالزمن في منظور الفيلسوف أو رجل الدين تتراوح معانيه بين التغني بالماضي والرثاء للحاضر و التطلع للخلاص المقبل، بينما ينظر اليه الفلاح البسيط على أنه إطار تنتظم فيه المواسم الزراعية (بذر و حرث وحصاد...) و يعيد فيه الحاضر ماضيا فائتا لكنه قابل للتجديد.

في المجتمعات البدائية، يتجه التفكير البشري إلى عدم التميز بين الماضي و الحاضر و حتى إذ كان هذا التميز قائما فإنه غير واضح: لان جوهر الفكر البدائي غيبي. و يتجلى ذلك في الطقوس والعبادات القديمة. فلا فرق بين الزمن الميثي و الزمن التاريخي أو يكاد.

وفي المجتمعات التاريخية التقليدية، يعتبر الانسان –عموما– الماضي مرجعية الحاضر. فنصيب الجديد في هذه المجتمعات ضئيل إذ أن الرؤية الماضوية تطغى

على مجالات الحياة بشكل سافر. فالجديد يظهر –بمظهر البدعة– التي تبشر بالانحطاط.

متى و أين ظهر مفهوم "التقدم" أي الجديد المرادف للأحسن والأفضل؟ تحقق ذلك بشكل واضح (إذ عمّ مجالات الحياة بكاملها) في المجتمعات الأروبية خلال القرن التاسع عشر. فالتقدم العلمي والتكنولوجي الذي شهدته أروبا جعل الفكر الأروبي يتخذ موقفا واضحا من الماضي والحاضر والمستقبل. فالمذاهب التاريخية تقر بحتمية التطور. أي أن الحاضر أحسن من الماضي والمستقبل سيكون أحسنا منهما. يؤكد ماركس العلاقة بين الماضي والحاضر فيخلص إلى أن الماضي حمل ثقيل يجب على الانسانية أن تتخلص منه.

إلا أن الحرب العالمية الثانية جعلت البشرية لا تطمئن إلى فكرة التقدم. فالقلق الذي أحدثه تفجير القنبلة الذرية دفع الناس إلى إعادة النظر في مستقبل البشرية. و تؤكد التحولات الجارية خطأ الرؤية التي تقرّ بانتقال البشرية دائما نحو الأحسن. تشهد فلسفلة التقدم في أيامنا ردّة عنيفة جعلت المفكرين ينظرون إلى الماضي نظرة حنين ويعتقدون في عدم جدوى بناء أنساق تفسيرية عامة ونظريات شاملة تهدف إلى دراسة الانسان و الكون.

تواجه الاسطوغرافيا الأروبية المعاصرة ردّة تقودها التيارات الفكرية الحديثة (فوكو وغيره) تحت ضغط هذه الردّة، تخلى المؤرخون الأروبيون عن التاريخ الكلي (أي عن تقديم نظم تفسيرية شاملة على طريقة مدرسة "الحوليات" الفرنسية) وتوجهوا إلى دراسات ظواهر جزئية (التاريخ الجزئي) تحيل إلى التمثلات الاجتماعية و التصورات الفردية كالسير الذاتية والأساطير.

إن هذا التغير رافقه تحوّل في رؤية المؤرخ إلى العلاقة بين الذاكرة والتاريخ. في السابق، كان المؤرخ يضع الذاكرة في خدمة التاريخ، (ماهي إلاّ مادة أولية) أما اليوم، فأصبح المؤرخ في خدمة الذاكرة.

و لكن بين الذاكرة و التاريخ تعارض واضح !

ان الذاكرة عنصر من عناصر الحاضر: أما التاريخ فهو الماضي الذي وَلَّى و انقرض؛ تحيل الذاكرة إلى الاستحضار و الوجدان ويحيل التاريخ إلى التفسير و العقل كيف يخرج المؤرخ من هذه المعضلة.

لا يجوز للمؤرخ أن يتخلى عن قضايا المجتمع و العصر و إلاَّ تحول إلى ناسك يعيش في خلوة فكرية، بل واجبه أن يبقى مندمجا في مجتمعه متأثرا بهمومه غير أن رسالته الجوهرية لا تكمن في مسايرة مستلزمات الذاكرة المجتمعية بقدر ما تكمن في توجيه هذه الذاكرة و ترشيدها. لا ينفع المجتمع أن يستحضر الذكريات الماضية و يتغنى بها لأنها جزء من هويته الذاتية بل ينفعه أن يعقلن هذه الذكريات حتى لا يتحول إلى سجين للماضي. إن واجب المؤرخ يتمثل في تنظيم الماضي و تفسيره بغرض إفادة الحاضر والمستقبل.

محمد غالم[*]

[*]مؤرخ- جامعة وهران/ باحث بالمركز البحث في الأنثروبولوجية والعلوم الإجتماعية والثقافية.